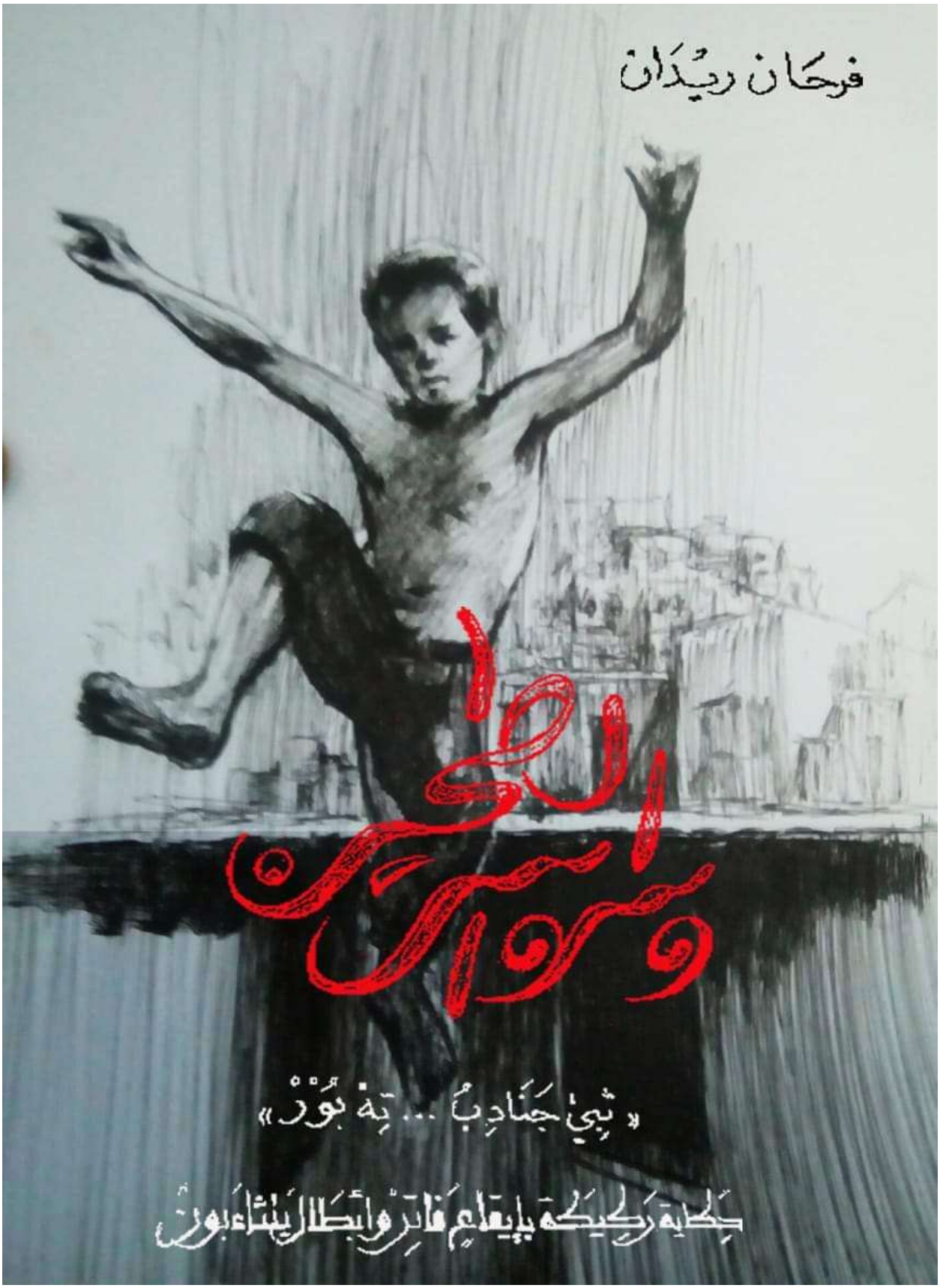

فرحان ريدان
حكاية ركيكة بإيقاع فاتر وأبطال يتثاءبون

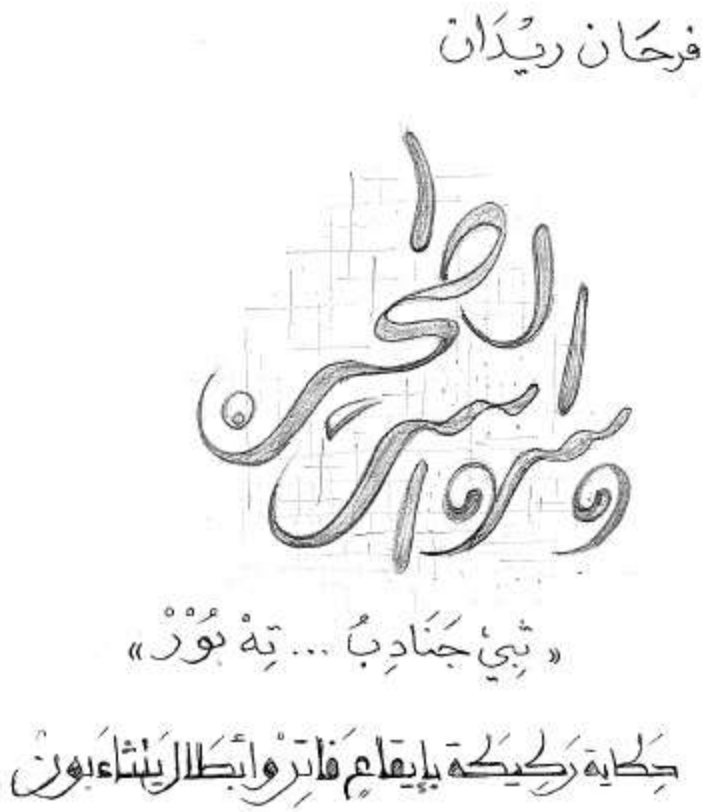

خطوط **شاهر كرباج**

لوحة الغلاف **فرزان شرف**

إلى ابني أَيْسَر:

أَنا أُلهي الطَّريقَ.. وأنْتَ تَرْكُضُهُ

خاتمة !

حَشروني في شاحنة الأغنام وربطوني بحبْلٍ ثخيْن كي لا أعُضَّ الخرافَ الطريَّة ، ركضّتْ الأشجارُ طيلة الصباح ، غفوْتُ قليلاً ... أفقتُ من الألم الذي يجتاحُ حَلقي ، ثم غفوتُ من جديد ، حلمتُ أن أسناني تتساقطُ تباعاً في كفيَّ ، وقفتُ على حافة البِرَكة .. ورشقتُ بها وجهَ الماء ، وعندما وقعَتْ شمسٌ شاحبة عَنْ شجرة السَّرْو .. رأيتُ المبنى المكعب الذي كالبسكويت المصفوْف .. **والنزلاءَ** بقمصانهم الطويلة المخططة .. حيثُ نهضوا من ظلال الأشجار واحتشدوا على جانبيّ المدخل والممرات ، وراحوا يحملقونَ بي ، أرَدْتُ أن أمازحَ المخططين .. اقتربتُ مِن أحدِهم ويدايَ مُوثقتان خَلْفَ ظَهري ، وشَخَرْتُ كاشفاً عن أسناني ، قرفَصَ في الأرض ونَبَحَ عليّ ، ثم تَبِعَنا على أربع ، وسرعان ما انتقلتْ عَدْوى النباح إلى العنابر ، وظلال الأشجار ، وصُفوف البسكويت ، ذُعرَ الحمَامُ ، وتواثبتْ جنادبُ ، وهَرَبَتْ الكلابُ – الكلاب . ظهَرَ شخصٌ كالثلج في عتمة المدخل ، هدأ النباحُ ثم تلاشى ، غَيْرَ أنَّ هتافاً تصاعدَ : فريقٌ يقولُ :

(نَطّ الصِّيني) وفريقٌ ينفخُ أفرادُهُ في أكُفهِم: ووفْ ،ووف أومأ شخصُ الثلج إلى سائق الشاحنة ومساعديه أن ينصرفوا، ثم أمرني: ورائي! ...

تبعتُه في الممر حتى الحائط المعدني، الذي انفتحَ ودخلنا فيه، ثم انغلقَ علينا من تلقاء ذاته، وأحسَستُ أنني أرتفعُ، وأعلو فقدْ رأيتُ سطح مبنىً صغير، ورأسَ السروة المدبَّب وظهْرَ حمامة. دخَلَ إلى مكتب ووقفَ خلف الطاولة، رأيتُ كرسياً قريبا فجلستُ عليه ورحْتُ أتأمَّلُ حافة الطاولة الخشبية، فمنذُ أن بدأ الألمُ في أسناني وأنا أخفي ذلك عن الجميع، لأنهم لو عَرفوا به فلسوف يأخذونني إلى خالي معضاد الذي سيقلعُهُ بالكمَّاشة المرعبة التي يسحبُ بها مسامير الفولاذ من حذوات البغال، فتحملتُ الألم وبقيتُ أياماً بلا نوم حتى صرْتُ أمشي كالنائم.. وأهاجمُ فيالقَ الجنِّ التي تمدُّ لي ألسنتها، لكني اكتشفتُ أن الألم يخفُّ بعد أن أعضَّ الممحاة أو قطعة نايلون... فتحتُ حَلقي في هدوء وعضضتُ الطاولة برفق وأنا أكُظ.. وشخصُ الثلج صامتٌ كتمثال:

لم يقلْ شيئا، لم يخفْ، لم يندهشْ. كبسَ على زر وراءه، وجاءتْ امرأة بقميص أبيض أيضا، يداها ناعمتان، كلٌّ يد في جيب، أحبَبْتُها ما إن دَخَلَتْ، نظرتْ إليَّ وبَسَمتْ، أضاءَ قلبي، اقتربَتْ مني وقالت: افتحْ حَلقكَ وانظرْ إلي!.

انحنتْ ونظرَتْ في حلقي، ثم مسحَتْ بيدها على شعري.. وحضنَتْ خدِّي وسألتني:

كَم عمرك؟. قلتُ على الفور: عشرُ سنوات. نظرتْ في عيني: أنتَ حلو.. وتسمَعُ كلامي ولن تعذبني، هززتُ رأسي موافقا وسعيداً. أدخَلوني إلى غرفة شديدة الإضاءة، وتحَلقوا حوْلي بكماماتهم الخضراء..كانت بينهم، عرفتُها من عينيها.. وكانت تبسُمُ لي، وضعوا على أنفي خرطوما ناعما.. شممتُ رائحةَ غازٍ غريبة ودارتْ بي الغرفة.

صحَوتُ في العتمة، في غرفة شاحبة فيها أسِرَّة معدنية وأنين، خفتُ، ولكن لا ألمَ في حلقي، تحسَّستُ أسناني بلساني، ثمة فراغ.. هدأتُ وتراجَعَ خوفي، وواضح أنني غفوتُ ونمتُ عميقا، فقدْ بدأتُ أستعيدُ صفاءَ ذهني.. نهضتُ، اكتشفتُ أن يديَّ طليقتان! .. تذكرتُ يديها الناعمتين فانفتحَ البابُ ودَخَلتْ، همَمْتُ أن أركُضَ إليها لكني عدَلتُ ربما حياءً. جلسَتْ على سَريري وجلستُ بجانبها، أضاءت لمبةَ السرير ونظرتْ في حلقي، قالت بلهجة محببة وآمرة: لا تمشي ولا تغادر السرير حتى أعود، قلتُ: أريدُ أن أبوْل. قادتني من يدي:

"..شد السيفون وأغسلْ يديك مفهوم". ووقفتْ تنتظرني في الممر، أعادتني إلى السرير، قلتُ: جوعان. قالت: أعرف وذهبَتْ. شعرتُ أن رأسي مازال ثقيلاً، وأنني كالدائخ، استلقيتُ، ويبدو انني غفوتُ، فقدْ أيقظتني يدُها ، أخذتني إلى غرفة نظيفة فيها سرير وطاولة صغيرة وثلاجة.. أعطتني كأسا فيه ماءٌ أخضرُ : تمضمضْ ثم ابصقْ في المغسلة، خذ هذه الحبة ، إنها مُرَّة ولكنها تفيدكَ ، الآن سنأكُل معاً ، أنا أيضا جائعة . ما أن شبعتُ حتى أعطتني حبةَ دواء ثانية. قلتُ:

- كنتُ سأركُضُ إليكِ!.
- ولماذا لم تركُض؟.
- خجلتُ!.

ضمَّتني إلى صدرها وهمسَتْ كأنما لنفسِها: ويقولون إنكَ مجنون!.

- أنا لستُ مجنوناً ولا أعُضُّ.
- أنا متاكدة.
- وأنا أحبكِ!.
- أنا كمان بحبك ... حبيبي الصغير! (وضمَّتني).
- لستُ صغيراً ! أنا شاب! (وابتعدتُ عنها).
- أيوَه ! هذا بالضبط ما أردتُ سماعَه، اجلسْ حتى أكلمك، واسمعني كشاب، كرَجُل: هذا مشفى للامراض العقلية!. للمجانين يعني، عمتفهَمْ؟.. لا أعرف كيف أدخلوكَ هنا... المهم أن أعرفْ كيفَ أُخرجكَ، .. توسَّلتُ إلى الدكتور يرجوخ كي لا يكتبَ اسمكَ في السجلات.. افهمْ كل كلمة أقولها، أعرف أنكَ لستَ مجنوناً، الأهم أن تثبتَ ذلك له.. سيقابلكَ غداً فلا تخيِّبْ ظني، ولا تأتي بحماقات.. مفهوم؟
- فهمت، بس ... مين .. يرجوخ؟
- الطبيب الذي رأيتني في مكتبه أولَ مَرَّة. اتفقنا؟.

- اتفقنا.

حدَّثتني عن يرجوخ.. كان طبيباً برتبة كولونيل، يكتُبُ بالإلمانية، ويغني بالفرنسية، ويشتِمُ بالروسية.. حَكَتْ لي حكاياتٍ .... علمتني كيف أغني: شايف البحر شو كبير.. غفوْتُ على صوتِها.

وفي الصباح التالي سألني يرجوخ:

- إلى أي شيءٍ تشتاق؟ إلامَ تحِنُّ يا ولدْ؟.
- إلى فخاخي، وصفِّ النخيل على طريق المدرسة.
- وأيضاً؟
- دخان المطحنة في الندى... وساقية أقفزُ فوقها
- وحدَك؟
- وحدي.. لا ..كيف وحدي.. أنا وأهل قريتي!.
- يعني أنتَ وأهل قريتكَ تحتشدونَ عند الساقية ثم تقفزون دفعة واحدة؟ ألم يكُنْ بينهم شخصٌ ما.. بتنورة ملوَّنة وجدائل صغيرة؟ حاول أن تتذكَّر...
- هذه لمياء بنت جاد الكريم.. كنتُ أمسكُ يدَها ونقفزُ معاً!.
- لقد فهمتُ كُلَّ شييء: أنتَ تحنُّ إلى المطحنة! .. هذا عُصَابُ البُرْغُل يُسمُّونه في أوروبا: البرغُل شيزوفرانيا، وأنا أسميه: **وسْواسُ الطحين!**..

لَسْتُ هو

جاءَ رَكَّاض الشَّعلان ليكْويني في قَفَا رأسي، شافوني أُحلقُ في الفراغِ فأَحضروا ملعونَ الوالدين كي يحشُرَ شحَّاطة في فمي ويكويني في قَفَا رأسي .. رآني خالي وأنا أَضجرُ في البيت الجُّواني ...

.. فظنَّ أنِّي في طريقي إلى اكتشافات جنونية.. أو جنونٍ لم يُكتشفْ .. فَبَعثَ إلى محروق الوالدين :

(إلحقني عَ دار أُختي رئيفة ..) ذلكَ أنِّي أضجَرُ بمزاجْ .. هكذا :

أنبطحُ قدَّام كوارة القمح شابكاً أصابعي تحت رأسي , وأَروْحُ أُحملقُ في قناطر السقف ساعات طويلة دون أن يرفَّ لي جفنٌ أو رمش , وحَوْلي دجاجاتُ أمي تنقرُ الحَبَّ بتؤدة ! وتَسْلَحُ في سَكيْنةْ . ويقولون أني ورثْتُ هذه " الصَّفنات " من خالي ، هذا ما أخبرتني به أمي . وما سمعتُه مراراً من جَدتي عندما كانت مُخطتُها تَمْغَطُ على نيْعي وهي تبوسُني: "تقبر عظامي ! أنتَ **فَرْدْ ... مثل خالِكَ مِعْضَاد** "

ولم أَكُن وقتَها أكترثْ لما يقولون ، كنتُ أحشو بطني واجلسُ على درجات العليَّة لأرمقَ الدجاجات بعينَي ثعلب صغير ، فبعْدَ أن أَفهموني أن الدجاجات للضيوف طارتْ فرخةٌ مسلوقة وحطَّت في منامي ، فتشبثتُ بها ، ورحتُ أعضُّ عليها بيديَّ وأنا أشمُّها وأتأملُ رقبتها الممزوطة ، ثم فتحتُ حلقي وقرشتُ فستقَ صدرها فصرخَ أخي الصغير : أاااخ .. ونهضتْ أمي : " شوباك يا ضَوّ عيني ؟ " فأشارَ إلى قفاه " عضَّني هون .. واوا !! "نظرَتْ إليَّ وانا أبحلِقُ كالكلبِ الملغوث وقالت: " بدَّك تاكل خيَّك ؟ " .. وهكذا فقدتُ الأملَ في التهام دجاجة وحدي ، فصرتُ أقربزُ قدَّام طنجرة البرغل وعينيْ على نعارة الدّبس التي نفتحُها يوم العيد كي نتحلّى .. حتى إذا غفلتْ أمي هجمتُ على العيد الذي يسيلُ لاصفاً بلون **بُنّي** ، ويتوقَّدُ حارقاً عقلي كتبغ التَّتار ..

وعندما كبرتُ وصار بوسعي أَنْ أقلبَ كلباً راكضاً بضربة حَجر، آلمني، وحزَّ في نفسي أن يفسِّروا براعتي بأنها "طالع لَ خالو معضاد".

لقد أنكروا علي إنجازاتي ونسبوها إليه.. حَزُّوني.. دفعوني إلى الصراخ:

" أنا مش خالي .. مش خالي ي ي ي ! " وإذا كان سقراط قد أثبتَ أنَّ "كل إنسان فانْ " فلسوفَ أُثبتُ أنني لستُ خالي !، فليست الفلسفة حصراً على سقراط والذين بزروه ، ولا جبهةً وطنيةً هو شوفيرها ليطردنا منها وقتما شاء ، مثلما يفعل دحَّامُ زوجُ عمَّتي ، الذي يطردُ الكلابَ منْ فَيءِ المقطورة ويفرشخُ فوق التراكتور وحدَهُ .. وهكذا أكونُ مختلفاً عن خالي ، فأنا ، إذن ، **لستُ هو** ، بدليل أنني أنا ، في حين أنه خالي . ولحظةَ خطر لهُ أن يكويني في قفا رأسي إندلقتْ صداقتُنا التي حرصتُ عليها رائقةً وصافية كقنينة زيت في الشمس ، لكنه ذبَحَ الزيت ليحتشدَ عليه الذَّر وتلسُّهُ الخنافس ، وها هم يقتحمون عزلتي عملاً بنصيحتهِ .. ليحطمَّ ما تبقى من القنِّينة ويملأَ روحي حتى حافتها بالامتعاض ، ويجعلَني انفجرُ في وجوههم :

" انقبروا لَ لبرَّا ولاااا .. يلعَن حليبكم " .. فحاصَرُوني ، حشروني بين القنطرة وخابية الماء ، دعوتُ الله في سِّري : " يا عاين الستَّة على السِّتين " ولبطتُ ركَّاض عل خصيتيه ، وعضَضْتُ خالي على إبهامه وتملَّصتُ منهم ..طارَدُوني في أزقة القرية ، استعانوا عليَّ بكل من صادفوه ، سدُّوا عليَّ المنافذ نذَرتُ شمعةً للمزار فأضاءتْ رأسي فكرةٌ : تعربشْتُ على تنُّور أم شاهين ، ضغطتُ أصابعي فوق النتوءات في حجارة الدَّبش حتى أمسكتُ بِجِسْرَ الحَوْر الجَّاف المندفع كالسبطانة فوق الزقاق وبلحظة كنتُ أركضُ فوق السطوح ناثراً ورائي حبات القمح المصوَّل وأقراصَ البندورة المقددة .. التقطتُ أنفاسي ، نظرتُ صوب المزار فأدهشتني قبتُهُ البيضاء فوق حجارة الدبش الأسود .. وتذكرتُ نذري ، فكَّرتُ : أنا الآن في مأمن ، فلماذا أفي بنذرِ المزار ؟ معي نصفُ فرنك وأريدُ أن أشتري بقلاوة .. فلماذا أشتري شمعة للمزار ؟ وما أن مرَّ هذا الخاطرُ في ذهني حتى رأيتُ خالي يتربَّصُ بي ، متقدماً نحوي على أطرافه الأربعة .. ككلب صيد . ذعرتُ ، قفزتُ إلى نعنع الخابية في دار سبردج ، وهربتُ إلى صخور التل وأنا أردِدُ مرتعشاً : " دخيل ربَّك يا مزار !!.. لَكْ عندي شمعتان "

وَثبْتُ عن صخرة المنطار إلى شقيف الزاعقة .. تسللتُ إلى مغارة القعق واختبأتُ. .

نَهْجُ خَالي

عتمةُ المغارة جعلتْ إرادتي تلين وحَنقي يخفّ ، ووجدتني أَمْيلُ إلى مصالحة خالي ، ومراضاته ..وفي الأصل أنا لا أكرهُهُ .. ، أنا أحبه حقاً ، ولا أنسى ما فعله لأجلنا ، ولا أنكر جمائله .. إنهُ خالي ، خالي الذي يلحُم لنا بوابير الكاز .. ويقلعُ أضراسنا .. ويحذي البغال .. وفضلاً عن أنه معلمي الأول ، فأنا لا أنسى ما حييتُ كيف قَحَطَ التّبنَ والرَّوْثَ من إسطبل داره وجعلَهُ مدرسةً تلمُّنا من الأزقة .. بعد أن وضَعَ المناهجَ الدراسيةَ بنفسه .. وأوجزَ الأبحاث بعناوين صغيرة ، ووصايا عملية .. **مبسَّطة وسَهلة** :

" كيف تقلعُ نابَ البعيْر دونَ أن يعضَّك "

" لا تُشعلْ الحرذونَ إذا كانت خزانتُكَ من صناديق البندورة .. وتحتَها شَحَّاطةُ ابنِكَ مقلوبة "

" إذا سافرَ أخوكَ إلى فنزويلا وأخذوكَ معهم إلى المطار فإياكَ أن تتعلقَ بالطائرة "

" إياك أن تضربَ ديكَ الحبش بجزمة الكاوتشوك ، قد تخطؤه وتصيبُ ابنكَ الصغير .. فَنْدِي !"

كل هذه المباحث ، والكثير ..الكثير غيرها مِنْ وضْع خالي ، لقد ضمَّنَ المناهج الدراسية عُصارةَ خبرتِهِ وجذوةَ روحهِ ، ولمْ يبخَلْ علينا بالعلوم والمعرفة التي هدرَ عمرَهُ في اكتشافها ، وعلَّمنا كيف نكون وجهاءَ .. ومتحدثينَ لامعين .. وكيفَ نقفُ في المناسبات .. وماذا نقولُ في الأعراس .. حتى المآتم .. عَلَّمنا كيفَ نقف فيها وقورين ، وفي مهابة .. فقد كان يقسمنا فريقين متواجهين .. ثم ينبطحُ هو بيننا في دَوْر الميِّت ..

ويقول الفريق الأول : عظَّم الله أجرَكُم

يرُدُّ الفريقُ الثاني : أجرك عند الله عظيم !

خاطرنا عندكم .... يسلم خاطرك

الله يرحموا ... تعيش

كان يحنّ ع الأرامل.. من معروفكم

وما أن نَصِلَ إلى عبارة "كيف حال خواطركم يا قرايبنا " ...

حتى يَعْلو شَخيرُ خالي ، فنهربُ من المدرسة ونترُكهُ نائماً .

عَرنوس

خرجتُ من المغارة عند صَمت المغيبْ ، فام أسمع أدنى نأمة ، كان كلُّ شئ غارقاً في الصمت ، وفي السهول الممتدة أسفل التل ، التمعَ سطحُ المياه في مَطحُ السَّرْج ، وعلى بُعدِ مِيل منه ، رأيتُ بيوتَ الشَّعر التي نَصَبها البدو في رُقة البقر .. فتذكَّرتُ عرنوس ، زميلَ دراستي الذي يسكنُ هناك ، وتذكرتُ أن خالي كان يقول لنا :

".. **وزنُ صَاعِ القمح يساوي وزن خروف أبيض وحذوة كديش..**" لكنَّهُ توقَّفَ عن الشرح وقال :

" هُوْنْ يا عرنوس هُوْنْ " أَدَرنا وجوهنا في فضول ، انتظرنا بفارغ الصبر لنرى قادماً يريحنا من المدرسة فلم يدخلْ أحدٌ ، فنظرَ خالي إليَّ : " طلاع هاتو " قفزتُ عن جِلد الخروف الذي أفرشُهُ تحتي وركضتُ خارجاً ، فرأيتُ عرنوس أولَ مرَّةْ ، كان يحاول الدخول من الجدار عن يسار الباب ، قُدْتُهُ من يدِه وأدخلتُهُ إلى الصف وأجلستهُ بجانبي ، وراحَ الأولاد يتفرجون عليه ، ولم ينتبه أحدٌ لخالي الذي تابع الدرسَ في حماسة : " **طُوْلُ المطخ القبلي مئة وخمسون يرجوخاً .. مفهوم و لا ؟** "

أجبتُ وحدي : " مفهوم أستاذ " فقد شهدتُ تجربة القياس بنفسي :

أخذ خالي ابنهُ **يرجوخ** ، وناداني أنا ودعيبس أبو طافش لنساعده .. فكانَ يبطحُ يرجوخ على ظهرهُ فوق التراب ، ويرسمُ خطاً عند كعبي قدميه وخطاً عند قبة رأسه ، ثم نحملُ يرجوخ ، أنا ودعيبس ، وننقلُهُ بعد كل قياس حسب توجيهات خالي ، ويرجوخ يأكل عرائسَ الزيت والسُّكر، والذباب يحوْمُ على وجهه .. " يالله ! .. انقبروا ل برّا " خرجنا إلى الفسحة ، وتحلقنا حولَ عرنوس ناظرينَ إليه إلى أعلى ، فهو طويل ورفيع ورأسه صغيرةٌ كرأسِ الحيَّة الطرماء ، وفوق شفتيه شعيراتٌ خفيفة كالوبْر ، وعيناه زائغتان حتى أننا لم نعرف أين ينظر .. وعندما عُدنا إلى المدرسة — الإسطبل لم أفهم لماذا جلسَ قريباً من الباب كَمَنْ يتأهب للهرب ، لكنه أَسَرَّ لي بعد أسبوع أن القناطر ترعبُهُ وأنه يخاف أنْ تسقطَ على رؤوسنا ، فسألتُه أيّ قناطر ؟ قال :

" غناطر المدرسة " ولأنه لا يوجد في سقف المدرسة سوى غنطرة واحدة ظننتُ أنه يسخرُ مني فقرَّرْتُ أن أعرفَ حقيقة نواياه :

".. ولا ! كم غنطرة بسقف المدرسة ؟ "

أجاب في جدية : أربعة ! ، قلت لنفسي هكذا إذن ، وعلى الفور وَشْوشتُ الأولاد ، واحداً واحداً : "عرنوس بيشوف الواحد أربعة " وبدأنا نعذبه :

نفردُ أصابعنا في وجهه ونسأله : قدِّيش هِذُول يا بَدَويّ ؟

أو نقدم له بضعَ حبَّات زبيب فيظن أنها نصفُ صَاع ، وعندما يضمُّ كفيه لأخذ الزبيب نبصقُ في كفيه ونسأله : " شو رأيك طيب ؟ " ثم اكتشفنا أن معه خمس ليرات فسالَ لعابُنا ، فنحن نعرفُ أن الليرة عشرون فرنكاً ، ورغم أننا فشلنا في حساب الفرنكات كلها .. إلا أننا فهمنا أنها كثيرة .. فأخذناها منه لنشتري له بقلاوة ، وبالفعل أعاد له

دعيبس حبتي بقلاوة وعشرَ قطع نقدية فئة نصف الفرنك وقال " أمسك ولا ! هذول تسعين فرنك فأخذها عرنوسُ صامتاً ولم يأكل البقلاوة ، فأكلتُها أنا ومثقال. وفي اليوم الثاني شَرَحْنا له **ماذا** يفعل عندما يتزوج ، واقترحنا له حلولاً تساعدُه ليلة الدخلة .. وكيف يميزُ العروس من أطيافها ، وزوَّدناه بإرشادات تفصيلية تمكنّهُ من معرفة أطياف أرجلهِ من أطياف أرجلها المتكررة ، وقال دعيبس " تخفش ! أنا بفوت معك " فانفجرنا ضاحكين ، وسالتْ دمعةٌ على خدِّ عرنوس ، فقال مثقال : " تفو تبكي مثل الحريم " ، وظل عرنوس صامتاً ولم ينطق بكلمة .. لقد " عَيَّدنا " عليه شهراً كاملاً وتسلَّينا به وتخَلَّصْنا من ضجر المدرسة وكآبة الفروض .. لكن خالي استكثَرَ علينا هذه البهجة وطرَدَهُ من المدرسة لسبب تافه :

دخلتْ زوجةُ خالي إسطبلَ الدرس لتأخذَ حطباً للتنُّور ، ورائحةُ الروث تنبعثُ من تنورتها السميكة وجزمتها الكاوتشوك التي تصلُ ساقها حتى الركبة ، وإذ انحنتْ لتملأ الغربالَ بعيدان الدوالي وسيقان القمح اليابسة ، ظن خالي أن عرنوس يبصبصُ على قفاها ، فنهرها :

" زِتّي من ايدِيك وانقبري من هون ! " ثم هجمَ على عرنوس وأخذَ يرفسهُ في بطنه وعلى رأسه .. ثم أمسكه من قدميه وشحطه خارج الإسطبل فضحكنا حتى دمعتْ عيونُنا ، ونهض عرنوس ، أدار ظهره للمدرسة ولم يعد يراه أحد .

في المساء جاء خالي وعنَّفني :

- " .. ولا حمار ! كيف يطلِّع عَ مَرْتْ خالك وما تقلع عينو ؟ "
- " عرنوس كان نعسان وما كان شايف حدا "

واحتدمَ الجدلُ بيننا ، وحاولتُ أن أُفهمه أنَّ عرنوس ، حتى وهو في أَوْجِ صَحْوه ، لا يستطيع أن يميِّزَ شيئاً وأنه عندما يكون داخل الإسطبل لا يفكر إلا في الهرب لحظة وقوع القنطرة ، وبالأَصل ، فإن هواجس خبيثة كهذه تخطر في بالي أنا !! ، ولا تخطر في بال عرنوس ، إنه خجولٌ كالبِنت ولا يؤذي نملة .. لكن خالي لم يقتنع فقلتُ له : " المشكلة إنك غيور ! " فقال : " أنا أغار ! أنا ! "

وصار يُرغي ويُزبد ويصرخُ في وجهي ليقنعني أنه لا يغار ، وعندما تأكدتُ أَنْ لا جدوى من النقاش معه صَمَتُّ وأنا أعلم أنه في الليل .. وعندما يغفو أولادُه :عبد الجليل ، وفرنجية ،وزين الكمال، وعويضا، ودحَّام، وبَلشي وهايل ، وفندي ، ويرجوخ ، وكاساندرا .. ويغطُّون في النوم ، ويلبطونَ اللّحفَ ، ويدحَلون فوق بعضهم ، ويحلُمون ، ويضرِطون في دَعَة ، ... عِندَها ، أنا على يقين من أنَّ خالي يَغِيْرُ على زوجته .

فارس ابن حياة بو فارس الله يرحمو

أنْ يدخلَ الإسطبلَ في أَنَفَهْ ، ويخطرَ بين الطلبة في هيئة بطل ، وأن يتحدثَ إلينا في حماسَةْ ، تلك متعةُ خالي العاتية ، وبهجته الطاغية ، فقد صارت المدرسة هاجسَهُ وعالمُهُ الذي شُغف به تاركاً أرضه تبور منصرفاً كلياً إلى تعليمنا .. وعندما بعثوا إلينا معلماً من الشام صُعقَ خالي ومادت الأرضُ تحت قدميه ، ولم يصدِّق أنه رُمي إلى غير رجعة بعيداً عن عالمهُ الذي يهوى ، فصار يقضي نهاراته على سطح العلية متأملاً نتفَ الغيم ، وصار وجهُه شاحباً وغارتْ عيناه ، وعندما يناديه أولاده ليأكل ، لم يكن يجيب ، فيصعدُ هايل على السلم الخشبي حاملاً إليه رغيفين وصحنَ بُرغل ، لكنه لم يكن يلتفِتْ إلى الطعام ، كان ينظر إلى الدنيا في أَسى" ، ذاهلاً عن الحَمَام الذي يحطُّ على طعامه وينقرُه كلَّه وعَرَفَ المعلمُ الجديد كيف يستميلُ الناس ويكسبهم في صَفِّه ، وكيفَ ينتزع إعجابهم واعترافهم بثقافته وضلوعه في شتى العلوم ، حتى أنه إذا تنحنَحَ في صَدْر المضافة صَمَتَ الجميعُ ، واتجهتْ الأذان إليه ، فيتنهَّد ويقول : " إييـه ! سقراط إنسان .. سقراط فَأْنْ ! " فيخلبُ الألباب ويُدهش الحاضرين ، الذين سرعانَ ما يفتحُونَ حلوقهم في ذهول وَهُمْ يسمعونَ أنَّ في الإنسان مخٌ ومخيخ وعادات وتقاليد ، وكيفَ حَمَلَ جمال عبد الناصر مِعولاً في الليل وحفَرَ قناةَ السويس وحدَه دُوْنَ أن يراه الإستعمار ، وأن شكري القوَّتلي يطبخُ مفرَّكة بطاطا بنفسه ويرفضُ أن يطبُخَها لهُ الحاجِبُ حتى لا يَهدر الوقتَ القومي ....وأنَّ العِلْمَ في الصغر كالنقش على الحجر ، .. فضلاً عن الرفق بالحيوان وتراث الأجداد .. وأشياء أخرى لا تقل أهمية .. حتى صار اسمُ عقاب الشواهين على كل لسَانْ ، وبدَا خالي كمَنْ يسابق تراكتورا" على بَغل أعرج ، وقد أيقن أن الناس انفضُّوا من حوله واحتشدوا حَوْلَ الشواهين كالذباب على صَحْن دبسْ ، وهذا معنى عِبَارتِهِ التي كان يقولها كأنه يكلِّمُ نفسه : "المزار القريب ما بيشفي الغلّ " والتي تمثِّلُ اعترافه بالهزيمة أكثرَ من أي شيء آخر . ..

" الليّ بالصَّف الثالث يرفَعْ إيدو ! "

رفعتُ يدي مثلهم وأنا أتأمل بذلتهُ البنية الكالحة وبُنُوْدَ حذائه الأخضر التي تخترقُ حلقاتِ قصدير واسعة عند مُشْطِ قدَمِهِ .. ، وانقضى أسبوعٌ وأنا أسائل نفسي إنْ كان هذا المعلمُ عبقرياً حقاً كما ذاعَ صيتُهُ حتى جاء يومٌ قال فيه :

مَرَّتْ فويق الأرض تسحبُ ذيلها والريحُ تحمِلُها على الآفاقِ !

فارتعشتْ روحي ، وأضاءَ قلبي ، وشعرتُ أنه لا يوجد شاعرٌ في الدنيا يَصِفُ الدجاجةَ بمثل هذه العذوبة وهذا البهاء الزاهي ، ناهيك عن أنَّ البيت يرصدُ لواعجَ نفسي ، ويؤججُ لوعتي ، ويعذبني ، ويذكِّرني بأملي في التهام دجاجة وحْدي ، واكثر ما سحرني موقعُ الدجاجة : فوَيق ، أي أنها ليست فوق الأرض ، وإلا لكان أستاذي قال صراحة : فوق ، وهي ليست تحت الأرض ، لأن الدجاجة لا تمشي تحت الأرض إلا إذا كانت سوداء تلبَّسَها جنيٌّ ، وهكذا فان **فوَيق** لا تعني فوق كما أنها لا تعني تحت ، إنها ببساطة فويق : لا فوق ولا تحت ، وبمعنى أدق : لا تحت ولا فوق ، وهذا سرُّ عذوبتها ومكْمَنُ سحْرها . وخالجني شعورٌ بالفخار وأنا أنظر إلى استاذي ، وأقسمْتُ أن أكونَ

تلميذاً نجيباً جديراً باحترامه ، كي أثبتَ للأولاد أني أستطيع أن أكوْنَ الأول وإن لم يكن الاستاذُ خالي ، ووجدتُ في امتحان التعبير الكتابي فرصةً مناسبة لإظهار مواهبي ولفتِ انتباه المعلم الى امكانياتي ، ليعرفَ أيَّ طالب اكونْ ، ومجرد أن قرأتُ في ورقة الإمتحان : " أكتب موضوعاً عن ألوان العيد .." قلتُ لنفسي :

في العيد نفتحُ نعارةَ الدِّبس كي نتحلَّى، ولون الدبس بُنِّي ، وإذاً لون العيد **بُنِّي** ،، وهكذا ، وعلى الفور ، وقبل أن يبدأ الطلبةُ تفكيرهم في إجابة ، فهمتُ المطلوبَ على الطاير . كتبتُ على ورقتي : " بُنِيّ " وسلمتُها للمعلم ، نظرَ في الورقة وقال : " شو هذا وْلَكْ حيوان ؟ .. يا جحش ، أكتب عن العيد الإنتخابي ، عيد الجماهير .. هذا عُرْس وطني .. فهمت ؟ "

حرَّكتُ رأسي منكسراً أَنْ : نعم ، فقال : " انقلع ، فوت عَ مطرحك " أخذتُ ورقتي وأنا أتمنى لو تنشقُّ الأرضُ وتبتلعني ، كان الحزنُ يملأ روحي وعيونُ الأولاد تحاصرني ، وأنا وحيد في ذُلّي أبتلعُ المهانة في صمت ، وأُوشِكُ أن أَسمعَ هواجسَ مثقال ودعيبس وبرجس .. وضحكَهم الهاز ىءَ والمكتوم ، ولا أدري كم مضى من الوقت وأنا أحدق في الورقة متظاهراً بأني أفكر ، لكن روحي كانت غائبة ، ونفسي ذاهلة ، وشعرتُ أن دهراً من الوقت يجثم على قلبي . ثم بدأتُ أعودُ إلى رشدي ، وأدركتُ أن عليَّ أنْ أكتب شيئاً ، فإن لم أكتب فلسوفَ يشمتُ بيَ الجميع ويقولون أني كنتُ الأول لأن الاستاذَ كان خالي ، وليس غريباً أن يقولَ متقال : " زمان الأولْ تحوَّلْ " وأن يقولَ برجس : " سَمُّوك مسحراتي رمضان خَلص ! " .. ورغم الألم الذي بدأ في بطني والطنين الذي في أذني صمَّمْتُ أن أكتبَ وأن أُثبتَ لَهُمْ تميُّزي: تماسكتُ ورحتُ أفكر ، فأشرقَتْ في عقلي الكلمات ، خربشْتُ على المسوَّدة بعضَ الأسطر ، ثم نقَّحتُها وكتبتُ الصيغةَ **النهائية:**

(... كان فارس إبن حياة أبو فارس الله يرحمه .. يَفلَحُ أرضَه الواقعة جنوب المطحنة ، ونَسيَ أن يذهب إلى الإنتخابات ، فجاء رجَالُ المخفر واقتادوه إلى العُرْس ... حَيثُ أنزَلوا شروالَه الأسْوَد حتى رُكبتيه وأجْلَسوه في وضعية السُّجود .. ثم نفخُوه بالمنفاخ الأزرق تبَع التراكتور الأصفر .. وأرخى الليلُ سُدوْله !) .

وفي المساء ، جاء المعلم إلى دارنا ونهض أبي يستقبله :

" يا هلا ومرحبا بالإستاذ عقاب ... آنستنا وشرَّفتنا ، تفضَّلْ : تفضلْ البيتُ بيتُك. " ثم أجلَسَهُ في صدر المضافة وقَرَّبَ لهُ مخدَّات الصُّوف ، وبَعْدَ أَنْ صَبَّ له القهوة ، ظلَّ واقفاً يؤِّهل ويسِّهل به . وشعرتُ بالغبطة ، فمِنَ المؤكَّد أن المعلم جاء يمتدحُني ويثني عليَّ أمام أبي . وما أَنْ ذهبَ المعلمُ ، حتى سمعتُ أبي يناديني : " تاع لَ هون ولا مقصوف العمر ؟ " ولم ينتظرْ حتى يأتي مقصوف العمر ، بل جاء إلى البيت الجوّاني بنفسه .. فحاولتُ أن ألوذَ خَلْفَ أمي وهي تعجن ، لكنَّهُ باغتني بصفعة على وجهي ... قالت أمي :

- خير انشاء الله .. شو بدَّك بالولد ؟

- هذا ولد ! هذا قِرْد بَدُّو يخرِب بيتي !

هَجَمَ صوبي وهو يكضُّ على أسنانه : " ولا ! شو أعمَلْ فيك ؟أرميْك للكلاب ؟ "

لكنَّ أمي و ضعتْ يَدَهَاْ التي عَلقَ بها العجينُ حتى المرفقين في طريقه :

- إبعدْ ! روحْ غَادْ !

- " لو تعرفي شو كَتَبَ ... منشان يَخربَ بيتي وينسى الذبَّان الأزرق طريقي ! "

وبعد هذه المقدمة أخذا يوجَّهاني .. ، قال أبي :

" يا حمار ! .. أُكتُبْ : كانت العصافير تغرِّد على الشَّجرْ ! ونحنُ نضحَك وندُقّ على الشبَّابة ومِشْ ناقصنا شِي .. "

أضافتْ أمي:

" أكتبْ كمانْ : دار أم مِثقال ذَبَحوا المِعْلوفي .. "

فصاحَ أبي :

" وْلِكْ سِدّي بُوزِكْ خَربطتيني ! .. " .

طلاغْ... تْخفِشْ !

يوما بعد يوم تلاشى اليأسُ من نَفْس خالي ، وبدا يثوبُ إلى رُشده ، و شيئا فشيئا عاد يزاول أعماله ، ولكنه صار يخلط بين عملين كأن يدق مسمارا" في بابور الكاز ، أو يحمل كاوي اللحام ويرفع ذراعَ الجحش .. ثم يستدركُ غاضبا : " يا جماعة مليش نفْس ، حلِوُّ عني ! "

أما قلعُ الأضراس فلم يكن يخطئ بها بسبب خبرته الطويلة ، وربما لأنه يستخدم طريقة مبسَّطة وسهلة :

يُسنِدُ سُلَّماً إلى حائط التبَّان ويقولُ للمريض : " طلاع تخفشْ ! " ثم يصعدُ خَلفَهُ وهو يعضُّ على ذيلِ السِّراج بأسنانه ، وفي جَيبهِ خَيْطُ قنَّب ، وتَحْتَ إبْطه كلبٌ . وإذْ يصير على السطح يرفِسُ السلَّمَ ويلقيه أرضاً . ثم يربط طَرَفَ الخيط بضرسِ المريض من جهة ، وبذيلِ الكلب من جهة أخرى .وبعد ذلك يحمل السِّراجَ ويسكبُ قليلا من الكاز على ذيل الكلب ويُشعلُهُ ، فيدوْرُ الكلبُ مذعوراً .. ثم يقفزُ ساحباً وراءَهُ الضِّرسَ من شروشه .

وخلال سنوات عمله استهلكَ خالي ليترين من الكاز ، وخمسةَ سلالم ، وثمانين كلبا .

شُكْراط فَانْ

كنتُ على سطح العلية أطلُّ على الساحة ومشهد الغروب عندما سَمِعْتُ نباحا ضاريا وغوغاءَ غامضة ، نظرتُ تجاه مصدر الصوت ، فرأيت المعلم ينعطف قادما من زقاق أم رامز مذعورا في ساحة البلدة ، يطاردُه الكلبان الشهيران: دَيَّان وزعُّور . وكان زعور على بعد خطوتين من المعلم ، في حين تخلف ديان وراءهما لأنه اعور .. وعلى الفور التقطتُ حَجرا" ملئ كفي وأنا أفكر في فرصتي الوحيدة لأقدِّم معروفا للمعلم عَلَّهُ يعدِّلُ إنطباعه عني، وقررتُ ان أضرِبَ الكلب الأخطر الذي يوشك أن يدرك رُبلة أستاذي ، وبلمح البصر ، سدَّدْتُ على زعور وطوَّحتُ بالحجر بكل ما أوتيت من قوة ، ويبدو أنني أصبته في رأسه لانه أنبطح في الساحةبلا حراك ، الأستاذ انبطحَ في الساحة بلا حراك ؛ ... فانبطحتُ أنا على السطح على أساس أنني نائم . لكني بدأتُ أرتجفُ وأتعرق خائفا من أن يكون أحدٌ قد رآني وترددتُ : هل أ ظل مبطوحا أم أنزل على السلم وأهرب ؟ لكني لو نهضت فلسوفَ يراني الجميع ، فقد صرتُ أسمع أصواتهم وهم يحتشدون حول الأستاذ المبطوح . حبستُ أنفاسي و أنا لم أعد قادرا على الحركة ، وانقضَتْ دقائقُ طويلة قبلَ أن أسمعَ صوتَ المعلم في الساحة :

" **إيـه سقراط إنسان سقراط سقراط فان** " فتنفسْتُ الصعداء وقلت كالراديو : " الحمد لله .. جَت سليمة **!!** " ولولا تدخل الغانمين الذين سارعوا وباسوا شوارب الأستاذ ورجَوْه أن يزرعها في ذقونهم ، لأخذني الدَّرَكُ إلى العُرْس ولقيتُ ما لاقاهُ فارس إبن حياة أبو فارس الله يرحمو.

وتبين إني أصبْتُ الأستاذ في فكِّه ، ففي عصر اليوم التالي جاء برفقة المختار إلى بيت خالي ورجاه أن يقلعَ له ضرسا ، وقال :" ما نمتُ طولَ الليل " ، ولم يتردد خالي في خدمة الأستاذ وتخفيف ألمه ، وعلى الفور نادى ابنه عويضا وأعطاه إشارة برأسه وشرَع هو في التحضير لعملية القلع . المبسطة والسهلة. وبعد نصف ساعة قال للأستاذ : " **طلاعْ تخفشْ !** " ، تعربشَ الأستاذ على السلم الخشبي ، ثم تبعه المختار وصعد وراءَه إلى سطح التبَّان . تعربشنا (أنا ودعيبس ومثقال) لنتفرَّج ، رآنا رامز ونواف وشرحبيل الزوبعة ويرجوخ الكفيري ووهيب فأخبروا كرم وفهد وكشاجم رزق وقاسم يلنجوج ونزيه ابن هيلة وجاؤوا جميعا وصعدوا إلى السطح ، ثم جاء رئيسُ الجمعية الفلاحية وأمين فرقة الحزب والشيخ بو سماعيل نجيب وناطور الماء وراعي البقر ، وسايِسْ المجْلس ، وبعد ربع ساعة كانت الضيعة كلها قدْ احتشدتْ على سطح التبان وفي أرض الدار وعلى السطوح المجاورة . وعندماتعربشَ خالي متأبطا كلبا ذعر الأستاذ وحاول أن يشق طريقه اتجاه السلم ليهرب ، ولاحظ الجميع انه خائف فبادروا إلى تهدئته: " أتكل على الله وأفتح حلقك !" قال الشيخ نجيب، وقال المختار : " مثل شُرْبة الميّ ! " ، وتدخَّلَ رامز : " السنة الماضية قلعتُ ضرسين سَوا !" ثم راح كلُّ مَن على السطح يبدي رأيه ويلوِّحُ بيده ويشرحُ للأستاذ ، مما زاد ذعرَهُ وجعله يتوْه بين الأصوات والوجوه ، .. قال كأنه يتيمٌ ، أو ولدٌ يأخذه شيخٌ إلى شرقي البيادر : " راح الوجَعْ ! " ، ولكنه أدركَ أنها حجةٌ

واهية وأن أحدا لن يصدقه .. فنظر في الوجوه كأنَّهُ يستجدي ولكن دون جدوى . وانقسمنا . نحن الأولاد . فريقين ورُحنا نتراهن إن كان الأستاذ سوف يقمُطُ لحظةَ وُثوْبِ الكلب عن السطح ، فقال دعيبس :" .. مثل اللغم " وأكَّد مثقال : " رَحْ يحرق قلشينو ! " أما أنا فلم أقتنع أن الأستاذ سوف يفعلها ويضرِطُ ، أليس هو الذي قال **مَرَّتْ فويق الأرض تسحب ذيلها** ؟ فوَيق .. ويُفلِتُ حصانا" ؟ ، ولو فعل ، فمن ذا الذي ينسى ؟ فكثيرا ما سمعتُ النسوةَ يتسمارنْ :

. من غير شَرّ .. أي متى سافرَ جُوزِكْ ؟

. يوم قمطْ بو كايد

. قدِّيش عُمْر المحروس ؟

.كان عمرُه شهر يوم قمط سِلفِكْ رامز !

إ ننا نؤرخُ أعمارَنا بالخيول ..

. " يا جماعة اسمعوني ! " صرخ الأستاذ بالحشد ، فهدأ الهرجُ وصمتَ الجميع ، وهمسَ برجس : "العكروت ! نفذَ بريشِه " فقلت له : عيب عليك ، فلكزَني يرجوخ وأشارَ بحاجبيه بمعنى أن الأستاذ سيتكلم : " هل نسيتم أن الكلابَ مِن مخلوقات الله ؟ أليستْ الأرضُ وما عليها من خَلْقِ الله يا شيخ بو سماعيل ؟ " إن الكلاب أرواح مثلنا ! والله ميزنا عنها بالعقل فهل نُشعِلُها لأنها لا تعرفُ كيف تقول أااخ ؟! هل خلَتْ قلوبُكم من الرحمة ؟! . الرفق بالحيوان واجب على كل مؤمن ! ... انا مثلاً .. ضِرسي توجعني .. ولكني لا أقبَلُ أن أخففَ آلامي وأحققَ سعادتي على حِسَاب كلب ! .. إنها مسألة مبدأ !! " همسَ برجس : " طِلِعْ منها بطل " غضبتُ ، وقرَّرتُ أن أغيظ برجس وأبرهنَ عن احترامي لأستاذي ، وأثبتَ للملأ اني ، أنا أيضا ، لي أفكاري ، .. صِحْتُ : " اربطوا الخيط بي أنا !! " ذُهل الحشدُ .. واستغربَ خالي .. وارتسمتْ الدهشة على وجوه الحاضرين .. تابعتُ :

"**اربطوا الخيط بقشاطي !** " ووضعتُ إبهامي تحت الحزام عند خاصرتي ، فظنوا اني مخبول .. وراحوا يفكرون كيف اقترحُ أن يُشعلوني بدلا من الكلب ، ولم يفهموا فكرتي حتى اوضحتُ :

" اربطوا الخيط بي .. وأنا أقفزُ على كومَة الرَّوْث ! "

فانطلقتْ عباراتُ الإعجاب .. وسمعتُ أحدَهم يقول : " الله يحرسك ! " وقالت إمرأة :

" سبحان من خلقو !" وقال صوت : " **طالع لَ خالو معضاد !** "

وإذْ قذفتُ جسدي مندفعا في الهواء شعرتُ بالخيط يشدُّني قليلا ثم يرتخي فجأة ، سحبتُ قدَميَّ الغائصتين في الروث وتعربشتُ على السلَّم عائدا إلى السطح لأطمئنَّ على نجاح ابتكاري : كانَ الأستاذ يحضنُ وجْهَهُ بكفَّيه وخالي يقول : " يا زلمي ! افتح حلقك وخلِّصني ! .. ثم وضعَ له مُضغةَ ثوم في تجويف الضرس المخلوع ، وبعد قليل ، تنهَّدَ الأستاذ : " إيييه .. شكراط إنشان شكراط فان " .

تِتْشَنْگَشوْشْ !

- ما بتخافْ ربَّك ؟

بحلقَ التاجِرُ الشَّامي في ذهول .

- شُو ؟ مِش سَامِع ؟

- عَمْ تحاكيني أنا عمي ي ي ؟ !

- إيه نعم ! إنِتْ .

- ليش مين حضرتا االك ؟ !

- مش عارف ها ؟ ولك أني مؤيد ابن ضامن !

وبهذا التوضيح ازداد الأمر غموضا وتشوَّش فِكْرُ التاجر !

- خيْرْ عَمِّي .. شو بدااااك ؟!

- التلفزيون **مْشَنْكَشْ** [1]

- ....

- رُدّ المصاري وخوذ سايبك ، يقبر عيونك !

فتحَ التاجرُ الكرتونة، وأخرجَ الجهاز، فرَدَ السِّلكَ ووضعه في الكهرباء

فركضَ رجالٌ خلفَ كُرة تتدحرج ... وعلا الصِّيَاحُ ودُهش مؤيد:

. قِرّرر ! شو عملت حتى دار ؟

. ما عملت شي !

. لكان ليش ما اشتغل عندي ، بالمضافة ؟

أعْمَلَ التاجر فكرَهُ ، وناقش الاحتمالات .. ثم قال في حَياء :

. يمكن كانت الكهرباء مقطوعة عندكُمْ !

. مقطوعة ؟ هِه!

. متأكد ؟

---

[1] * التلفزيون : صندوق مُغطَّى بقماش أبيضَ مُطرَّزٌ عليه (هذا من فضل ربِّي) ، يتراقصُ فيه شخوصٌ خفيفون كأنهم من الجن وتركضُ فيهِ الأشجارُ، وتَسِيْلُ منهُ نساءٌ ناعمات، لخصورهنَّ انخطافُ السنونو ، لحمُهن بَضٌ كورقة الملفوفة (آخر ورقة في قلب الملفوفة). يبسُمنَ في عُذوبَة ويتمايَلنَ كعُروْقِ البابونج .. ويبعَثْنَ في النَّفسِ عطشاً ، مِثْلَ تَوْق كُرةِ الحديد الخشنَة لأنْ تَفْتقَ عُنوةً، أو تُوسِّعَ قسْراً أمْعاءَ دجاجَةْ ، أو أنْ تَلْفِظَ بذرةَ أكِّدنيا في شَراشِفِ عَروْسْ .

. معلوم متأكد أصلا فِشّ عِنّا كهربا !

فانفجَر التاجر غاضبا ، وخجِلَ مؤيد من نفسه ، وأعتذر قائلا :

" لا تؤاخذني انطرى أني حمار بَس قلبي طيِّب، هات لَ بُوْسْ شواربك " وعاد إلى القرية.. باع العجْلَ الأحمر واشترى بطارية ، ثم جاء شابٌ من الشام على دراجة نارية .. ربطَ الشَّريطَ .... فقالت سميرة توفيق:

ويلي ويلي يا ويلي من الحب ويلي يا ويلي

طيَّرْ عقلي من رأسي يا ويلي آخ يا رأسي

فبكينا من فرْطِ الإنفعال حتى آمالتْ صَبيَّةٌ رأسَها في غنج ، وقالت وهي تبسُمُ : " مساء الخير " قلنا : " بِسْعد مساكِ " ونشقَ كلٌ مِنَّا مخطتهُ ، ثم نهضنا ونحن نكفكف دموعنا وأفسَحنا لها لتجلسَ في صدْر المضافة ، وقال فضل الله حميد : " تفضلي لَ مطرحي " فقالت: " هنا دمشق " ردَّ فوزات : " الشام صُوْبْ هِيك " وأشار بيدِهِ صَوْبَ الشمال ثم أوضح لها : " صوب غاد ،من أرض الهوْرَةْ وغاد هيك هَهْ هه "، لكنها سَالَتْ ورأينا قاعة كبيرة يجللها الوقارُ ، وفي محيطها رِجَالٌ مزدانون بالأوْسمة ، وقد جَلسوا مُسربَلين فوق الكراسي،لا يرفُّ لأحدِهم جفنٌ أو رمْش . وقال صوتٌ ، لم نرَ صاحبَه ،أنه ما كان لِسُوريَّا أن تخذَ مكانها الوطيدَ تحت الشمس لولا حكمة هؤلاء وتلاحم الجماهير الواعية خَلفَهُمْ .

يَرْجُوخ

رفعَ الكولونيل يرجوخ يدَه في مؤتمر الموارد الإستراتيجية حتى وَجَمَ رئيسُ الوفد ، ووضعَ كُلٌ منَ المارشال الروسي ، والقومندان الياباني سماعات الترجمة على أذنيه ، قال يرجوخ :

عن أي ردعٍ وأي تنمية تتحدثون ؟ إن عدد سكان الصين مليارٌ وربع المليار ، فلو أنهم قفزوا عن الأرض دفعةً واحدة فإن ذلك أخطر من أي تفجير نووي ! ولسوفُ ينفلتُ الكوكبُ من مدارِه!! .. وتطيرُ نساؤنا في هيولى المجرَّة ، وتنكشفُ أشياؤهن للأشعة فوق البنفسجية .. ثم اقترَحَ رَبطَ النساء منذ اللحظة بمظلات خاصة أسْهَبَ في تفاصيلها .. فانفجرتْ القاعةُ بالضحك ، وانفرَطتْ الجلسَةُ الإفتتاحية ، وصمتَ أعضاءُ الوفد الياباني ، وكان مقررا أن يقضوا أسبوعا في العاصمة ، غير أنهم اعتذروا فجأةً وعَادوا إلى بلادهم بألوانٍ مخطوفة . ويؤكدُ خالي معضاد إن إعتقال يرجوخ لا علاقة له بهذه الحادثة ، وقد يكون خالي على حق ، لأنه قابلَهُ أيامَ الخدمة الإجبارية ، وهو يُباهي بأنه عملَ تحت إمرة يرجوخ ، بَل إنه مبهورٌ به إلى درجة انه أسمى أحدَ أولاده وأحدَ أولاد أخته باسمِهِ ، وبالطبع فإن خالي هو الذي اقترحَ الدكتور يرجوخ لعلاجي بعد أن دبَّجَ له رسالةً استغرقتْ منهُ أسبوعاً .أمَّا حكايةُ إعتقال يرجوخ فيتجاهلُها السياسيون ويتهامَسُهاالبُرصُ ويمجِّدُها المجانين . ففي يومٍ ماطرٍ جالَ قائدُ الإنقلاب على الوحدات العسكرية ، تقدَّمَ يرجوخ منه وسألَهُ : لماذا **تنفخُ** في كَفَّيْكَ سَيدي ؟ فارتعبَ قادةُ الألوية ، واضطربَ المرافقون وحبَسَ الحاضرونَ أنفاسَهم . قال القائدُ : كي أدفئهما طبعاً !! ...ثم خطبَ فيهم وقال إنه نذرَ عُمرَهُ للوطن وأن الإستعمار سوف يخسأ ، وأمَرَهُم أن يَرضَعوا الحليبَ من فوَّهات البنادق .. وحين دخلوا إلى المقرّ قدَّموا له شايًا ساخنا ، رفعَ الكأسَ ونفخَ فيه .. قال يرجوخ :

سيدي لماذا **تنفخُ** في الكأس ؟ ..

تصَنَّعَ القائدُ التبَسُّطَ وقال: كي أبرِّدَهُ طبعاً !

عندَها، لفظَ يرجوخ جملتَهَ الضارية:

لا أثِقُ بالفَمِ الذي ينفِثُ الباردَ تارةً والساخنَ تارةً أخرى ! .

خَايِرْ مِزْهِرْ

تجدَّدَ الأملُ في نفسِ خَالي بعد أن قلعَ ضِرْسَ الأستاذ، فقد أحسَّ أن خصمَهُ ليس سوبر مانا وأنه قادرٌ على منافسته وربما هزيمته.. فأخذَ يُعدُّ العدَّة ويشحذُ قواه لمنازلته، واتخذ التنافسُ منحى جديدا، فالطريق الترابية التي تربط قريتنا بطريق الشام مليئة بالحفر، وهزاع النمط لا يعرف كيف يخفف سرعة اللاندروفر، وفي كل يوم تقفز السيارة في الهواء ثم تحطُّ وترتطم عجلاتها بالأرض.. وتتأرجح يميناً، ثم توشك أن تنقلبَ تجاه الشمال.. فيتشقلب الركاب، وتصطدم رؤوسُهم بالسقف وتتكسَّرُ أسنانهم. وبادرَ هزاع إلى بناء حائط من الأحجار الأسمنتية داخل السيارة حتى لا يطير الركابُ من المقاعد الخلفية إلى إخوانهم الجالسين في وقار في المقعد الأمامي، وأَبْلغَ كلَّ راكب أن يحْمِلَ معه مخدَّة كي يعضَّ عليها عند عبُوْر الحفر، فاعترضَ عقاب الشواهين: "حتى نضعَ النقاطَ على الحروف يجبُ أن نفكِّرَ في حلول جذرية لا حلول جزئية".. واقترحَ أن يمشي رَجُلٌ قدَّامَ السيارة ويَدُلَّ هزاع على الحفر، فأخذ الجميع برأي الأستاذ، وانطلق هزاع بسيارته خلفَ شكيب ابن جورية الذي كان يصيحُ عند كل حفرة: "هوشّ .. عَ مهلك"، وبدا أن الحل مقبول، وشعَرَ شكيب أنه ينجز عملا عظيما، فبعدَ كلِّ حفرة كان يضع إبهامه على فتحة أنفه وينفثُ، ثم يتابع سَيْرَهُ في زهوّ ، لكن هزاع صَدمهُ منذ اليوم الأول وحطمَ أضلاعه ...

فعدَلَ الأستاذ عن فكرته وأخذ يبحث عن حلول جديدة..

وانشغلَ الناسُ بالحديث عن الطريق.. ولم يبقَ أحدٌ إلا وأدلى بدَلوِه، أما خالي فلم يقلْ أيَّ كلمة، كان يقلِّبُ الأمر في رأسه، و يراقب، ويختبر أفكاره.. ويجربُ في صمت ويراجع أخطاءه بثقة، ويمشي إلى هدفه في ثبات. وذات أربعاء، نهض مع الفجر وتوجَّهَ إلى دار هزاع، أيقظه وأبلغه بلهجة آمرة: "هدّ الحيط من السيارة ولا قيني عَ الساحة! "ففهم هزاع أن خالي "وجدها"، وعندما جاء بسيارته كان الرُّكَّاب قد احتشدوا في الساحة فباغتهم خالي بابتكاره الفذ:

نابضٌ فولاذي يضعه الرَّاكِبُ بين فكَّيه !

لا جدران لا مخدات ولا شكيب ابن جورية.. مجرد نابض صغير يباعدُ بين الأسنان ويحميها بأن يمتصَّ الصدمةَ الميكانيكية! وحتى يطمئن خالي على ابتكاره باشرَ في اختباره على الفور: صَفَّ الرُّكابَ رتلا طويلا، وطلبَ إلى هزاع مناداتهم الواحد تلو الآخر، فيتقدم الراكب فاتحا حَلقَهُ، ويقف أمام خالي الذي يضَعُ له نابضا ويأمرُهُ "كُضّ "!..

ثم ينظر في حلقه ليتأكد إن كانت أسنانه تتلامس، وفي المساء، عاد هزاع من الشام ونزلَ الركابُ فرحين، يضحكون ونوابضهم في حلوقهم!، وهكذا استعاد خالي مكانته، وشعَرَ الناسُ بالندم لأنهم أهملوه، وقال عبد الجليل: "يا عمِّي، أعطِ الخبز لَ خبازه..".

وقالت سَبَرَدَج: اللي ما عنده قديم ما عنده جديد ".. وتراجعتْ أسهمُ الأستاذ، وتناقصَ عددُ مريديه، فصار يذهب إلى كتفِ التل ويتمشى وَحْدَه في المغيب، فإذا وجدَ أتاناً صغيرة سارعَ إلى الرفقِ بها.. ثم يعود إلى بيته فيتمَلكه الضجَرُ

ويضطره إلى الخروج مجددا للسهر في مضافة المختار.. وهناك، يشككُ في ابتكار خالي ويراهنُ على فشله.. لكن الإبتكارَ حقق نجاحا باهراً، ولم يتذمَّرْ منه أحدٌ أو يشكو.. بإستثناء عارضة بسيطة:

فقدْ صار هزاع يوزع النوابضَ على الركاب منذ المساء حتى لا يؤخروه في الصباح ، وأراد مِزهر العياص أن يذهب إلى الشام ليشتري لوايا فقالت شملكان: "رِجلي عَ رجلك" ولم يشأ مزهر أن يُغضب زوجته، فذهب إلى هزاع واحضر نابضين، وفي الليل، أخذ يتأهبان للسفر، فوضبا البيض في السلة ووضعا ديكين في كرتونة مثقبة.. وتفقدا قائمة الشراء.. واكتشفا أنهما نسيا الورص وقميص لوكس الكيروسين. ثم قال مزهر: "**لا تنسي النابض تَبَعِكْ!**خَلِّيه حَدّ راسِكْ". فقالت: "**مِشْ راح انسى تَبَعي**" لكنه خاف أن ينسى، هو، تَبَعَهُ.. فالإنسان ينعبط عند السفر: أخرَجَ تَبَعهُ ووضعه على غطاء الخابية حتى يراه وهو خارج، غدا، من الباب، لكنه تذكَّرَ أن شملكان تعطشُ في الليل، ولسوف ترفعُ صينيةَ القشّ عن الخابية ويقعُ النابضُ.. ففكَّر ان يضعه في الحذاء، لأنه من غير المعقول أن يَخرجَ حافيا ولا ينتبه.. وإذْ يَضعُ قدَمَه في الحذاء سيتذكر النابض، لكن الفكرةَ لم ترُقه. إذ كيف يضعُ النابضَ في الحذاء ليلة كاملة ثم يضعه في حَلْقِهِ.وكي يحسم الأمر، قرر أن يضعَ النابضَ في حلقِهِ وينام! ووجدتْ شملكانُ انه من الأفضل لها، هي أيضا، أن تضع "تبعَها" في حلقها بدَلَ أن تعلقه في رقبتِها بخيط مَصِّيصْ!.. وهكذا أطفأا قنديلَ الكيروسين وناما مطمئنين، وعندما أدارتْ شملكانُ ظهرَها ونامتْ على جنبها، سحبتْ اللحافَ قليلا عن مزهر، فأمسكَ طرفَ اللحاف وَجَرَّ جسدَهُ وراءها حتى التصق بها، وعندما انبعثَ دفؤها في ثنايا جسده فرَدَ يُسْراه ووضعها تحت رأسها ثم حضنها بيمناه وشدَّها إليه، أنَّتْ في غنج ونامتْ على ظهرها.. وبعد قليل أخذا يصيحان، شملكان تصيح ومزهر يصيح، وكان من الصعب **معرفةُ** الموجوع. وتبينَ، فيما بعد، أنَّ مزهر، وبعْدَ ان غابَ في أشواقِهِ، اجتاحته رغبةٌ عاتية في عَضِّ شملكان في كَتِفِها.. فعضةُ النابضُ في نِيعِهِ!.. أما شملكان فلم نستطع أن نعرف مِمَّ كانت تتألم. ووجَدَ الأستاذ في هذه الحادثة فرصة سانحة ليؤكد وجهة نظره ويقللَ من اهمية ابتكار خالي، ولم يخطرْ في بالِهِ أن ما حدث لا يدلُّ على عَيبٍ في التصميم بقدر ما هو سوء في الإستخدام... ثم نسيْناالأستاذَ، وحائطَ هزاع، وشكراط فان... وصارتْ نوابضُ خالي في متحف العاديات . ..إلى جانب المعول البرونزي! فقد قامت الثورة ووزعَتْ على كلِّ مواطن فلِّينة كي يضعها بين أسْنانِهِ، وسمحتْ له بأن يحتفظَ بفلِّينتِهِ، كما أعطته الحقَّ في أن يضعَها أينما شاء.

F.Ridan